

نقد "النقد المنهجي عند العرب"

دراسة وصفية تحليلية في الفكر النقدي لمحمد مندور

بلال دالي

طالب باحث، جامعة محمد الأول، المغرب

البريد الإلكتروني: Bilalisdalis98@gmail.com

معرف (أوركيد): 0009-0000-7095-5484

بحث أصيل الاستلام: ٢٠٢٥-٢-١٥ القبول: ٢٠٢٥-٤-١٥ النشر: ٢٠٢٥-٤-٣٠

الملخص:

يستعرض هذا المقال كتاب "النقد المنهجي عند العرب" لمحمد مندور، مركزاً على منهج التأريخ في النقد العربي والقضايا التي أثارها، وتكمن أهمية البحث في تناوله مؤلفاً سباقاً إلى تناول مسألة التأريخ للنقد العربي ووعيه بأهمية المنهج النقدي. كما يتطرق البحث إلى تحيزات المناهج الغربية، وإلى محاولات التوفيق بينها وبين معطيات الثقافة العربية، مبرزاً موقف مندور من هذه الإشكالية، ويستخلص منه القضايا الرئيسة التي أثارها تأريخه للنقد. وقد اعتمدنا في مقالنا هذا على وصف وتحليل مواد المتن المدروس محاولين الإجابة عن سؤالين اثنين: ما منهج التأريخ للنقد العربي القديم عند محمد مندور؟ وما أهم القضايا التي يثيرها هذا التأريخ؟

الكلمات المفتاحية:

النقد، المنهج، التأريخ، مندور، تحيز.

A Critique of Methodological Criticism among the Arabs: A Descriptive-Analytical Study of Muhammad Mandur's Critical Thought

Bilal Dali

Research Student, Mohammed First University, Morocco

E-mail: Bilalisdalis98@gmail.com

Orcid ID: 0009-0000-7095-5484

Research Article Received: 15.02.2025 Accepted: 15.04.2025 Published: 30.04.2025

Abstract:

This study examines Mohammed Mandour's book *Methodological Criticism among the Arabs*, with particular attention to his historiographical approach to Arabic literary criticism. The research highlights the significance of this early contribution to the historiography of Arabic criticism and its awareness of methodological concerns. It also explores Mandour's engagement with Western critical frameworks and his efforts to reconcile them with the specificities of Arab culture. Using a descriptive-analytical method, the paper identifies the major issues raised by Mandour's approach and seeks to answer two key questions: What characterizes his historical perspective on ancient Arabic criticism? And what critical problems does this perspective reveal?

Keywords:

Criticism, Methodology, Historiography, Mandour, Bias

تقديم:

يتناول هذا البحث كتاب "النقد المنهجي عند العرب" لمحمد مندور متنا للدراسة من خلال شقين اثنين هما: منهج التأريخ للنقد العربي عند مندور، والقضايا النقدية التي يثيرها هذا التأريخ، ونظرا للأهمية التي يمتاز بها بين باقي المتون التي تعرضت للتراث النقدي بالدراسة يأتي اختيارنا لهذا المؤلف دون غيره؛ ونمثل لهذه الأهمية بما يلي:

١. أسبقيته في التطرق إلى موضوع النقد المنهجي في المصنفات النقدية العربية، علاوة على أنه أول كتاب يصدره صاحبه الذي ترك بصمة لا يمكن إغفالها أو تجاوزها في النقد العربي المعاصر.

٢. وعيه بأهمية المنهج النقدي، تنظيرا وتطبيقا، وهو ما يفسره اعتماده للمنهج التاريخي كما نظر له جوستاف لانسوف، موليا بالغ القيمة للذوق الأدبي.

٣. كثرة الدراسات حوله، وقد حاولنا الاستفادة بجزء منها في إنجاز هذا البحث:

- محمد مندور وتنظير النقد العربي، محمد برادة، دار الآداب، بيروت، ط ١، ١٩٧٩ م.
- تطور النظرية النقدية عند محمد مندور، فاروق العمراني، الدار العربية للكتاب، تونس، ط ١، ١٩٨٨ م.
- سمات المنهج النقدي عند محمد مندور، عبد الرحمان أبو عوف، أدب ونقد، القاهرة، عدد ٦٣، ١٩٩٠ م.

ولمّا كان النظر إلى "النقد المنهجي عند العربي" من زاوية المنهج، ارتأينا أن نستهل هذا البحث بمدخل نتعرض من خلاله لإشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، مبرزين تحيزاته وقد حصرناها في ثلاثة توجهات رئيسة؛ توجه انحاز كليا إلى المناهج الغربية سميناه «التوجه المحاكي»، وتوجه توفيقى حاول الجمع بين المناهج سميناه «التوجه التوفيقى»، وتوجه انحاز إلى معطيات الثقافة العربية لتأصيل منهج عربي سميناه «التوجه التأصيلي»، لنحدد بعدها، في المبحث الأول، موقع محمد مندور ضمن هذه الإشكالية، ومدى انحيازه للمناهج الغربية ودواعي هذا التحيز.

ثم إننا من خلال دراسة المنهج النقدي عند مندور نستطيع أن نستشف مجموعة من القضايا التي أثارها تأريخه للنقد، ومثلنا لأبرز هذه القضايا في المبحث الثاني.

وقد استعملنا في بحثنا منهجا يعتمد على إجراءين اثنين: الوصف والتحليل؛ فقمنا بعرض مواد هذا البحث ثم تحليلها في ضوء الإشكاليات الكبرى التي حاولنا الإجابة عنها.

١- إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر:

قبل خوض غمار نقد كتاب محمد مندور موضوع هذا البحث [النقد المنهجي عند العرب]، ارتأينا أن نستله بمدخل نتحدث فيه عن إشكالية نجدها متأصلة في النقد العربي المعاصر، تعددت حولها التوجهات والتصورات، ونشأت عنها خلافات وسجلات، ألا وهي إشكالية المنهج؛ فتناول التراث العربي وتخصيصه بالدراسة يجعل منه عنصرا ثابتا في العملية النقدية، في حين أن المتغير في هذه العملية هو المنهج، ومن ثمة تكون نقطة الانطلاق واحدة [التراث]، ويكون المسار واحدا [الدراسة]، وتختلف الوسيلة التي سنركبها للمسير [المنهج]. والحالة هذه، لسنا نسائل التراث، ولا أحقية دراسته من عدمها، لأن هذا من البديهيات، وإنما نسائل المنهج الأصلح والأنسب لهذه الدراسة. ويمكننا أن نقسم هذه التوجهات إلى ثلاثة أقسام كبرى: التوجه المحاكي، والتوجه التوفيقي، والتوجه التأصيلي.

١,١ أصول الإشكالية:

لا يمكننا فهم واقع الثقافة العربية دون فهم واقع الحياة العربية، وهو واقع «مأزوم»^(١)، ولا يمكن للواقع المأزوم إلا أن ينتج ثقافة مأزومة، ومجروحة. من ثمة، ترخي الثقافة المأزومة بظلالها على طرائق التفكير العربي، وإنتاجه الأدبي، إبداعا ونقدا؛ ولنفهم أصول

(١) شعرنا القديم والنقد الجديد: ١٣.

إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، كان لا بد من حفر أركيولوجي قصير لتقصي أسباب هذه الأزمة.

يرجع عبد العزيز حمودة، «ثقافة الشرخ»^(١)، إلى احتقار العربي لمنجزات العقل العربي، وسط انبهاره بمنجز العقل الغربي. إذ وصل هذا الانبهار إلى ذروته، وأحدثت النخبة العربية قطيعة معرفية مع التراث وتنكرت له إحقاقاً للحدثة. كما فعل ميخائيل نعيمة، والعقاد، والمازني، تمثيلاً لا حصراً.

٢، ١ التوجه المحاكي^(٢):

بعد أن بينا أهم أسباب تأزم الثقافة العربية وتعرضها للشرخ، لا بد من استعراض تجليات هذه الإشكالية في النقد العربي المعاصر وجذورها الأولى، ولو أنها أقدم من ذلك بكثير^(٣)، حيث يعد ديوان العقاد والمازني (١٩٢٠-١٩٢١) «بداية أول قطيعة حادة مع التراث بوجه عام، ومن ثم، بداية تعويل الناقد العربي (الحديث) على أصول نقدية، ليست من صنعه، ولا من تراثه، بل من صنع الغرب (المتقدم) الذي أصبح اللحاق به منذ ذلك الوقت حلاً لأزمة التخلف»^(٤) وعلى الرغم من كون "الديوان" أول عمل رافض لأي نموذج عربي، قديماً وحديثاً، وقاد الناقلين في هذا انبهارهما بالغرب ونظرتهم الدونية إلى أتباع القديم إلى الحد الذي جعل صاحب المرایا المقعرة يقلل من قيمته العلمية، إذ هو [كتاب الديوان] «تسفيه وتسطيح لا يرقى إلى مستوى النقد، بل يمكن اعتباره قذفاً في

(١) ينظر: المرایا المقعرة: ١٧ وما بعدها.

(٢) هو التوجه الذي عُرف أصحابه بالنزوع إلى المناهج الغربية ومحاولة محاكاتها لكونيتها، ووظفوها في دراسة التراث العربي مغفلين، عن قصد أو دون قصد، مرجعياتها وأصولها الفلسفية والاجتماعية والثقافية، ووصفوها بأنها أدوات إجرائية محضة. (راجع مقدمة إشكالية التحيز في النقد العربي المعاصر).

(٣) الموقف من الفلسفة والمنطق الأرسطيين في التراث العربي، وتباين توجهات النقاد.

(٤) قراءة التراث النقدي: ١٧٣.

حق شوقي وشكري وآخرين»^(١)، وهو بهذا الموقف من الكتاب يؤسس لكون غربال ميخائيل نعيمة المؤلف الأكثر قيمة وجدية، والأجدر بوصفه المحاولة الأولى في هذا الصدد، لأن نعيمة انطلق من «نقطة ارتكاز أساسية وهي موت الثقافة العربية (في جانبها الإبداعي على الأقل) لأكثر من خمسمائة عام»^(٢)، فأقر بسبات العقل العربي لخمس قرون دون أن يضيف جديدا واحدا إلى خزانة الفكر العمومية، ومن هنا، نستطيع أن نقول باطمئنان، ودون أن نفضل أحدا عن الآخر، إن «حماس العقاد والمازني هنا للآداب الغربية لا يمكن أن يوصف بأنه أقل من حماس نعيمة!»^(٣).

وإذا كان النقاد الثلاثة يشتركون في محاكاتهم للنموذج الغربي مع تقليدهم من شأن التراث، وأحدثوا قطيعة معه، فإن طه حسين نحا منحى مغايرا بقراءة جديدة للتراث أساسها رفض الاعتراف بإغلاق باب الاجتهاد، وسنّ مبدأ «الشك الديكارتى»^(٤)؛ ومن ثمة، وضع الشعر الجاهلي موضع شك وتمحيص، ولكنه لم يرفضه أو يحتقره، إلا أنه انطلق من تصورات مسبقة عن الشعر الجاهلي لم تتماشى ومنهجه، ف«أنكر الشعر الجاهلي، وشكك في وجود الشعراء الجاهليين»^(٥)، هذا، دون ذكر أنه لَقِيَ بين منهج ديكارت الذي أساء فهمه واستعماله أصلا، وبين المنهج التاريخي المختلفان اختلافا جذريا في الأسس والمرجعيات. فمنهج ديكارت، الذي يعتبر الشك مجرد خطوة من خطواته، لا يؤمن إلا بسلطة العقل ويتجرد من الحواس، أما المنهج التاريخي، شأنه شأن أغلب المناهج الحديثة، لا يسلم إلا بالحس مصدرا للمعرفة.

(١) المرايا المقعرة: ٣٢.

(٢) المرايا المقعرة: ٣٢.

(٣) المرايا المقعرة: ٣٤.

(٤) في الشعر الجاهلي: ١١. يقول: «أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء في أوائل العصر الحديث». نقلا عن: إشكالية التحيز في النقد العربي المعاصر: ١٨٠.

(٥) إشكالية التحيز في النقد العربي المعاصر: ١٩٢.

يتضح، من خلال استعراض ممارسة أصحاب هذا التوجه، وعيهم المبكر بإشكالية المنهج، ونزوعهم إلى توظيف مناهج غربية في تعاملهم مع نصوص من التراث العربي موقنين أنها المناهج الأصلح والأنسب، لا لدراسة الموروث النقدي فحسب، وإنما للحاق بالغرب المتقدم. إلا أنهم، ورغم وعيهم بإشكالية المنهج، «فإنه بقي وعيا متعثرا»^(١) كونهم نزعوا إلى الاتباع والمحاكاة، وإعادة إنتاج ما هو موجود قبلا.

٣، ١ التوجه التوفيقي^(٢):

يميز محمد الدغمومي بين أربعة أشكال لهذا التوجه، فبالنسبة إليه:

«١- هناك نزعة توفيق بين منهجين؛

٢- ونزعة توفيق بين أكثر من منهجين بدعوى التكاملية؛

٣- وهناك نزعة توفيقية استبدالية تغير المنهج بحسب متطلبات النص؛

٤- وهناك نزعة تلفيقية عامة تنوع مصطلحها ولا تخضع لتصور مبدئي»^(٣)

ويعتقد النقاد الذين يتبنون هذا التوجه أن النص، بما هو تركيبة معقدة من عناصر عدة، لا يمكن تحليلها وفك تشفيرها إلا بالنزعة إلى التوفيق بين المناهج لمحدودية المنهج الواحد وعجزه عن مطاوعة النص. ويذهب كثير من الباحثين إلى التمييز بين توجهين آخرين كبيرين داخل هذا التوجه نفسه [التوفيقي]، فيميزون بين توفيقية مقبولة، وتوفيقية

(١) نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر: ١٤٢.

(٢) هو التوجه الذي يوفق أصحابه بين منهجين نقديين أو أكثر، ويمكن أن نقسمه إلى أنواع: توفيق إيجابي بين مناهج تتقبل المزج، وتوفيق سلبي بين مناهج لا تتقبل المزج، إلخ. ولا يسعنا المقام هنا للتفصيل فيها والتمثيل لكل واحد منها.

(٣) نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر: ١٤٦.

مرفوضة؛ فرفضوا^(١) التوفيق أو التركيب بين المناهج بدعوى التكامل، واعتبروه خطرا على النقد العربي، ومعقلا لأزمته، ومسببا قلقا منهجيا. حيث إنها «تلفيقية تؤدي إلى الفوضى وتضارب المفاهيم»^(٢).

أما التوفيقية المقبولة^(٣)، «فتستوجب "صنع" منهج بديل تختفي معه المناهج الأخرى»^(٤)، أي أن يعمد الناقد إلى تحويل عناصر مناهج ما إلى عناصر بديلة تنصهر فيما بينها لتعطي منهجا جديدا يبتغي من خلاله الشمولية والجدّة. وهو المنحى نفسه الذي نحاه كمال أبو ديب محاولا الإتيان بمنهج جديد لدراسة بنية القصيدة العربية مستفيدا من عدة مناهج أخرى مثل التحليل البنيوي للأسطورة كما طوره كلود ليفي ستراوس (الأنثروبولوجيا البنيوية)، والتحليل التشكيلي للحكاية كما طوره فلاديمير بروب (المورفولوجيا)، وغيرها، يقول: «تهدف الدراسة الحاضرة إلى اقتراح الخطوط العامة لمنهج نقدي جديد هو، من حيث الطاقات الكامنة فيه، أغنى مردودا وأعمق قدرة على إضاءة بنية القصيدة من المناهج السابقة»^(٥).

(١) يرفض عدد من النقاد التوجه التركيبي/التلفيقي/ التكاملي، منهم: سعيد علوش، ورشيد بنحدو، وجابر عصفور. لمزيد من التفصيل، انظر: إشكالية التحيز في النقد العربي المعاصر: ٢٩٢-٢٩٣-٢٩٤.

(٢) حوار منشور في: أسئلة النقد، حوارات مع النقد العرب: ٧٠.

(٣) اقتصرنا على استعراض نموذج كمال أبو ديب، تمثيلا لا حصرا، ويمكن الإشارة إلى نماذج أخرى مثل: محمد عابر الجابري الذي مزج بين المنهج البنيوي والتاريخي والإيديولوجي (راجع: نقد العقل العربي في مشروع الجابري)، ومحمد مفتاح الذي جمع بين اللسانيات والسيمياثيات وما تفرع عنهما (راجع: المنهج في مشروع محمد مفتاح النقدي، ظواهره وقضاياها)، وعبد الغني حسني الذي دعا إلى منهج بلاغي لنقد الشعر ينطلق من اجتهادات بلاغية قديمة وحديثة، ويفتح على مناهج ونظريات أخرى في تحليل هذا الخطاب (راجع: نحو منهج بلاغي لنقد الشعر).

(٤) نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر: ١٤٧.

(٥) الرؤى المقنعة: ٤٦.

٤.١ التوجه التأصيلي^(١):

إذا كانت التوفيقية في النقد العربي المعاصر قد قوبل بعضها بالرفض، وعد بعضها الآخر مقبولا نسبيا، فإن بعضا من النقاد المعاصرين انصرف إلى تأسيس نظرية نقدية عربية بديلة، ولعل أبرز هؤلاء النقاد عبد العزيز حمودة؛ فقد حاول في المرايا المحدثبة نقد التعظيم الذي طال البنيوية والتفكيكية، ورأى أننا وقفنا أكثر من اللازم أمام المرايا المحدثبة، التي «تقوم بتكبير كل ما يوجد أمامها وتزييفه [المناهج الغربية] حسب زاوية انعكاسه فوق سطح المرأة»^(٢)، ثم حاول في المرايا المقعرة تأسيس نظرية نقدية عربية منطلقا من رفضه لاحتقار العقل العربي الذي حقق النهضة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، وهو العقل نفسه الذي بنى عليه الغرب نهضتهم، ورفضه أيضا للقطيعة مع التراث، ولكنه في الوقت نفسه يحذر من تقديس هذا التراث للحد الذي يعمينا عن الاجتهاد: «إن رفض القطيعة مع الماضي لا يعني تقديس ذلك الماضي والوقوف عند إنجازات الأقدمين في انبهار خاطئ مماثل لانبهار الفريق الآخر بإنجازات العقل الغربي»^(٣).

بالرغم من جدة وتفرد مشروع عبد العزيز حمودة، فإنه تعرض لانتقاد كبير من عيد بلبع الذي حاول في كتابه "خداع المرايا" الرد على مشروع حمودة وإبطاله من خلال ثلاث زوايا:

١- إعادة تعريف مفهوم القطيعة المعرفية.

٢- تركيز حمودة على السليبيات فحسب.

٣- خلل منطلقاته.^(٤)

(١) هو التوجه الذي سعى أصحابه إلى تجاوز تحيزات المناهج الغربية، من خلال تأصيل معطيات الثقافة الغربية وربطها بالتراث العربي، أي تبني المفهوم في الحقل المنقول إليه وتخليصه من المرجعيات الثقافية التي نشأت فيها. (راجع: إشكالية التحيز في النقد العربي المعاصر: ٣٣٧-٣٣٨-٣٣٩).

(٢) المرايا المحدثبة: ٦.

(٣) المرايا المقعرة: ١٧٤.

(٤) لمزيد من التفصيل، راجع: (خداع المرايا: ١٤-١٥).

نلاحظ، من خلال استعراض جزء من الآراء حول إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، أن النقاد المعاصرين كانوا واعين بهذه الإشكالية، وحاولوا، كل على حسب فهمه ودوافعه ومنطلقاته، أن يقدموا جوابا عنها مشتركين جميعا في غاية واحدة وهي تحديث وتجديد النقد العربي.

٢- المنهج النقدي عند محمد مندور:

في ضوء ما تم عرضه، يحق لنا أن نتساءل: ما موقع محمد مندور من إشكالية المنهج في النقد الأدبي المعاصر؟ وهو تساؤل مشروع، بل إننا نضيف: ما مميزات المنهج عند مندور بصفة عامة، وفي "النقد المنهجي عند العرب" خاصة؟ وأعرف مندور منهجا واحدا وبقي وفيه، أم أنه غير من اختياراته المنهجية مع الوقت؟ وما العناصر المتحركة في اختياراته المنهجية؟

يجمع أغلب النقاد على أن المنهج النقدي عند مندور مرّ من ثلاث مراحل^(١)؛ المرحلة الجمالية، والمرحلة الوصفية التحليلية، ومرحلة النقد الإيديولوجي^(٢)، وسنخص الحديث عن المرحلة الأولى فحسب، لأنها المرحلة التي أصدر فيها كتابه "النقد المنهجي عند العرب".

(١) لمزيد من التفصيل حول تطور النظرية النقدية عند مندور، راجع:

- مذهبي في النقد، محمد مندور.

- محمد مندور وتنظير النقد العربي، محمد برادة.

- تطور النظرية النقدية عند محمد مندور، فاروق العمراني.

- سمات المنهج النقدي عند محمد مندور، عبد الرحمان أبو عوف.

(٢) عشرة أدباء يتحدثون: ٢٦٠-٢٦١-٢٦٢. يقول: «لقد مرت بثلاث مراحل: الأولى تتمثل في المنهج

الجمالي في النقد، [...]، والمرحلة الثانية التي مرت بها كناقد هي منهج النقد الوصفي التحليلي،

[...]، وتأتي بعد ذلك المرحلة الثالثة، وهي مرحلة النقد الأيديولوجي».

١-٢ المرحلة الجمالية:

توجه محمد مندور إلى الجامعة ليتخرج وكيلا للنيابة بكلية الحقوق، إلا أنه التقى هناك ببطه حسين الذي اقترح عليه التسجيل في كلية الآداب، ولفت انتباهه، لأول مرة، إلى «أهمية المناهج الغربية في دراسة الأدب وتذوقه، وبخاصة المنهج الفرنسي»^(١) ثم بعد تخرجه، توسط له لإرساله في البعثة الدراسية إلى فرنسا للحصول على درجة الدكتوراه في الآداب.

وبعد عودته من فرنسا سنة ١٩٣٩، كان مندور قد قضى تسع سنوات كاملة يكون نفسه تكويناً موسوعياً بجامعة السوربون؛ فحصل على «إجازة في الأدب واللغتين اللاتينية واليونانية، وحصل على شهادة للعلوم القانونية والاقتصادية»^(٢)، وهي الشهادات الأربع المطلوبة للحصول على درجة "الليسانس"^(٣)، وإلى جانب حصوله على "الليسانس"، قام بإجراء بحوث حول الشعر العربي في معمل الصوتيات بباريس.

ورغم أنه لم يكمل أطروحته لنيل الدكتوراه بسبب اكفهار الأوضاع السياسية بفرنسا، إلا أنه عاد محملاً بثقافة موسوعية وتأثر واضح بمنهج الدراسة بجامعة السوربون القائم على تفسير النصوص، ومندور نفسه يعترف بهذا، إذ يقول:

«وإن كان تأثيري الأكبر في الحقيقة هو بأساتذة السوربون، وبالنقاد الغربيين وبخاصة الفرنسيين منهم، وكذلك بعلماء الجمال والنفس الفرنسيين [...] ثم كبير الأساتذة في فرنسا جوستاف لانسون [...] وتأثرت بمؤلفاته وبخاصة كتابه الدسم العميق عن تاريخ الآداب الفرنسية ومقالة عن منهج البحث في الأدب»^(٤)

(١) تطور النظرية النقدية عند محمد مندور: ٢٦.

(٢) محمد مندور وتنظير النقد العربي: ٣٩.

(٣) راجع: الثورة والأدب: ١٥-١٦.

(٤) عشرة أدباء يتحدثون: ٢٦٥.

يبدو من الواضح أثر الثقافة الغربية وجوستاف لانسون على تفكير محمد مندور، فهل نجد هذا الأثر في كتابه "النقد المنهجي عند العرب"؟

٢-٢ النقد المنهجي عند العرب، وسؤال المنهج:

يمهد محمد مندور لكتابه "النقد المنهجي عند العرب" بمقدمة حول منهج البحث، ويصرح بانحيازه للمنهج التاريخي على حساب المنهج التقريري الذي يقوم على أسس من علم النفس والاجتماع ونظرية التطور، إلخ، وهو الأمر نفسه الذي ذهب يؤكد في كتابه "في الميزان الجديد" من خلال رده على خلف الله الذي وظف المنهج النفسي لدراسة خطب الحجاج، ويخلص في النهاية إلى أن الحجاج يعاني من ازدواج في الشخصية (شخصية قوية الإيمان وشخصية قاسية صلبة)، الأمر الذي لم يتقبله مندور، فالحجاج عنده «أقوى شخصية من الازدواج. الحجاج نفس مؤمنة تتعصب لما تؤمن به، والتعصب قسوة...»^(١)

كما رفض مندور أن ينظر إلى النقد الأدبي في جملته، لما عرفه منهج هذا النقد من تأثر بالفلسفة اليونانية مما جعله ينتقل من نقد ذوقي جزئي غير معلل إلى نقد ذوقي معلل محتاط في إطلاق الأحكام، فيقول:

«من الخطأ أن ننظر إلى النقد في جملته، ونصرف النظر عن مراحل التاريخية، ونرى فيه علما كامل التكوين [...] لأن في ذلك ما يخلق مشاكل باطلة [...] ومن الثابت أننا لا نستطيع فهم شيء فهما صحيحا بالنظر فيه عند آخر مراحل...»^(٢)

(١) في الميزان الجديد: ١٨٢.

(٢) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ١١.

من ثمة، كان لزاماً عليه أن يقرأ هذا النقد قراءة تاريخية ليفهم أسباب تطوره؛ وما يثبت هذه النزعة التاريخية دراسته، تمثيلاً لا حصراً، للبديع عند ابن المعتز الذي ساهم، حسب مندور دائماً، في نشأة النقد المنهجي.^(١)

والمتفحص لكتاب مندور، لن يستطيع إغفال الإجراءات التي عرف بها المنهج التاريخي عموماً، والمنهج التاريخي كما عرّفه لانسون خاصة؛ ونورد منها أمثلة أبرزها:

- الدراسات الأدبية والدراسات التاريخية: يميز مندور بين النقد بما هو «فن دراسة النصوص والتمييز بين الأساليب المختلفة»^(٢) وبين التاريخ الأدبي الذي يجمع الخصائص الفنية المشتركة التي قام بدراساتها النقد؛ فيدرس النقد «رثاء المهلهل لأخيه كليب والخنساء لصخر [...] كل منهم منفرداً. ثم يأتي تاريخ الأدب فيؤرخ للمراثي عند العرب فيكون عمله تاريخاً لفن أدبي»^(٣)

- أهمية الذوق في النقد الأدبي: يتحدث لانسون عن الذوق قائلاً: «لن نعرف قط نبیذاً بتحليله كيمائياً أو بتقرير الخبراء دون أن نذوقه بأنفسنا، وكذلك الأمر في الأدب فلا يمكن أن يحل شيء محل (الذوق)»^(٤)، ومندور بنوع من التقليد يقول مدافعاً عن مركزية الذوق في العملية النقدية: «لا نستطيع أن ندرك طعم شراب أو طعام ما لم نتذوقه بأنفسنا [...] وكذلك الأمر في الأدب، فذوقنا الخاص أساس كل فهم له»^(٥) والذوق كما عرفه لانسون مشروط بأربعة شروط: تمييزه، وتقديره، ومراجعته، وحده. ويرجعها إلى مرجع واحد هو عدم الخلط بين المعرفة والإحساس.

(١) سنفضل في هذا الأمر أكثر في المبحث الذي خصصناه للقضايا التي أثارها محمد مندور خلال تأريخه للنقد المنهجي.

(٢) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ١٤.

(٣) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ١٤.

(٤) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ٤٠٢.

(٥) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، ص: ١٦.

يوظف مندور هذه الشروط في النقد العربي عند الجاهليين والأمويين، ويخلص إلى غياب مرجعها [الخلط بين المعرفة والإحساس]، حيث يحصرها في عيين: عدم وجود منهج نظرا لطبيعة الحياة البدوية المسيطرة على العرب، بالإضافة إلى عدم التعليل المفصل الذي يحتاج إلى مبادئ عامة لم تتوفر عند العرب آن ذاك. كما اشترط أن يكون ذوق الناقد مشروطا بالدربة والممارسة كي لا يقع ضحية للتعصب والانحياز لشاعر على حساب آخر، ف«الذوق الذي يعتد به هو ذوق ذوي البصر بالشعر»^(١) لأنهم الأقدر على تعليل أحكامهم، وبالتعليل يتصبح الذوق وسيلة مشروعة للمعرفة، ونموذج هذا ما نجده عند الأمدي الذي كان يعلل كل حكم يصدره، وهو ما يستعمله مندور لنفي تهمة التعصب عنه؛ فالأمدي «لم يتعصب للبحثري كما لم يتعصب ضد أبي تمام»^(٢)

- تحقيق النصوص وصحة نسبتها: إذ لجأ إلى هذا الإجراء، أقصد النظر في نسبة النص هل هو صحيح أم متحل، غير ما مرة، سواء حينما تعلق الأمر بابن سلام، أو الأمدي، ونسوق الأمثلة التالية لتبيان ذلك:

«يقول عن حسان بن ثابت [يقصد ابن سلام]: وقد حمل عليه ما لا يحمل على أحد لما تعاضهت قريش واستتبت، وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تليق به»^(٣)

«فالمؤلف [يقصد الأمدي] يرجع إلى النسخ القديمة ويحقق الأبيات. وإلى هذا يشير غير مرة في كتابه فيقول (ص ٨٩): "حتى رجعت إلى النسخة العتيقة" [...] وهكذا نراه يرجع إلى النسخ الأخرى لتحقيق النص قبل الحكم عليه»^(٤)

- روح العلم: نبّه لانسون على ضرورة الأخذ بروح العلم وتجنب تطبيق العلوم الطبيعية على دراسة الأدب منتقدا هيوليت تين وبرونتير، ولم يكن مندور ليستثني هذا

(١) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ١٠٢.

(٢) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ١٠٢.

(٣) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ١٩.

(٤) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ١٠٤.

الإجراء من دراسته، وأقر لابن سلام تبنيه لروح العلم وهو يفسر الظواهر الأدبية «كقوله في صدد الحديث عن شعراء القرى تعليلاً لقلة الشعر في الطائف ومكة وعمان وكثرته بالمدينة». ^(١) ويقول عن الأمدي: «والأمدي يملك كذلك روح النقد العلمي [...] وهو في ذلك تلميذ لابن سلام». ^(٢)

- دراسة المنهج والأخطاء: حاول مندور دراسة مناهج النقد في مفاضلاتهم بين الشعراء، وتنبه إلى أخطائهم التي هي جزء من طبيعة الإنسان؛ إذ خصص أبواباً مستقلة لدراسة منهج الموازنة والوساطة، ناهيك عن جرد الأخطاء التي وجدها في متهم المنقود. ونمثل لهذا الإجراء بالأمثلة التالية:

«والناظر لدراسته للأخطاء والعيوب وبخاصة عند أبي تمام يجد أن منهج الناقد هو رغبة في الإنصاف وحرص على التحقيق وإحاطة بما كتب في الموضوع ومناقشة لآراء السابقين فهو يقول (ص ٥٥) [يقصد الأمدي]: الذي وجدتهم يعونونه عليه هو كثرة غلطه وإحالاته وأغاليطه في المعاني والألفاظ». ^(٣)

«الواقع أن الذي يراجع كتابه [يقصد الموازنة] يجد أنه قد استخدم المعارف المختلفة التي انتهى إليها عصره خير استخدام، كل منها في بابهِ ولناخذ لذلك مثلاً دراسته لأخطاء أبي تمام وعيوبه، فنرى أنه يقسمها إلى ثلاثة أقسام: ١- أخطاؤه في الألفاظ والمعاني. ٢- ما في بديعه من إسراف وقبح. ٣- ما كثر في شعره من الزحاف واضطراب في الوزن». ^(٤)

يبدو بجلاء تمثّل محمد مندور للمنهج التاريخي كما أقرّه جوستاف لانسون، وقد حاولنا تبيان ذلك من خلال عديد من الإجراءات الحاضرة بقوة في هذا الكتاب، ولإن دلّ هذا على شيء فإنه يدل على تحيز مندور؛ ومن نتائج هذا التحيز إلى منهج لانسون «نظرتّه إلى التراث النقدي العربي نظرة تجزيئية انتقائية ضيقة، جعلته يختار منه ما يناسب مقاييسه

(١) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ٢٠.

(٢) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ١٠٤.

(٣) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ١١٥.

(٤) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ١٢٤.

الغربية؛ فأعلى من شأن الذوق على حساب (علمية) النقد، ورفض (الاتجاه العلمي) في النقد العربي القديم.^(١)

إن كل الخلاصات التي توصل إليها مندور نابعة من استعماله منهج لانسون «المفتقر للتاريخ»^(٢)، حيث إن له فهما خاصا للمنهج التاريخي، فعلى امتداد «صفحات الكتاب لا نعثر على أي تحليل للوضع التاريخي أو الاجتماعي الذي أنجب هؤلاء النقاد ووجه كتاباتهم».^(٣)

٣- القضايا التي يثيرها التأريخ للنقد المنهجي:

يعرف محمد مندور النقد المنهجي بكونه «ذلك النقد الذي يقوم على منهج تدعمه أسس نظرية أو تطبيقية عامة ويتناول بالدرس مدارس أدبية أو شعراء أو خصومات يفصل القول فيها ويبسط عناصرها ويصير بمواضع الجمال والقيح فيها»^(٤)، وللبحث عن معالم نقد منهجي يتسم بالشروط التي وضعها اتخذ من "الموازنة" و"الوساطة" مركزا لبحثه.

وقد تنبه مندور إلى مجموعة من القضايا التي يثيرها التأريخ لهذا النقد، من بينها قضية نشأة النقد المنهجي وإرهاصاته الأولى، إضافة إلى تاريخ علوم اللغة ونشأتها التي أثرت في ظهور النقد المنهجي، ولا ننسى أهم قضية تعرض لها في فصل خاص سماه "تحول النقد إلى بلاغة".

١-٣ نشأة النقد المنهجي وإرهاصاته الأولى:

توقف مندور عند كل من ابن سلام الجمحي وابن قتيبة فاحصا نقدهما الذي يبدو في عموميته نقدا منهجيا، إلا أنه نقد غير تام مفتقر للتفصيل وللتعليل وغياب الذوق الأدبي

(١) إشكالية التحيز في النقد العربي المعاصر: ٢٠٢.

(٢) محمد مندور وتنظير النقد العرب: ٢٢١.

(٣) محمد مندور وتنظير النقد العرب: ٢٢٠.

(٤) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ٥.

والحكم المستقل؛ فبالنسبة إلى ابن سلام، لاحظ مندور أنه «فطن إلى مجموعة من الشروط التي يجب أن تتوافر في الناقد وفي النقد»^(١)، ومن بينها: تقسيم الشعراء زمانيا ومكانيا، والدربة والممارسة، وتحقيق النصوص، وأسس المفاضلة. أما ابن قتيبة، ورغم تمثله للروح العلمية، إلا أنه «لم ينقد النصوص نقدا موضوعيا تحليليا [...] وإنما أورد في كتابه [يقصد الشعر والشعراء] أخبارا وقصصا عن الشعراء المختلفين، ثم بعضا من أشعارهم دون مناقشة ولا حكم»^(٢) كما عاب عنه منهج العقلي ونزعته التقريرية.

وبهذا يكون مندور قد بين الإرهاصات الأولى التي سبقت نشأة النقد المنهجي عند كل من ابن سلام وابن قتيبة، اللذين وإن لم يمثلوا النقد المنهجي إلا أن نقدهما حمل في طياته إشارات منهجية.

٢-٣ علم البديع ودوره في نشأة النقد المنهجي:

يرى مندور أن دراسة ابن المعتز للبديع حدث عظيم الأهمية في تاريخ النقد العربي وذلك لسببين:

١- «تحديده لخصائص مذهب البديع. ٢- تأثيره في النقاد اللاحقين له.»^(٣)

وابن المعتز أول من تناول البديع وقسمه (الاستعارة، والتجنيس، والطباق، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي)، ووضع مصطلحاته، وبين خصائصه، ومن ثمة أصبحت مبادئ المذهب واضحة، مما مكن الخصومة بين الشعراء. وبهذا يكون «قد ساعد على خلق النقد المنهجي بتحديده لخصائص مذهب البديع، ووضعه اصطلاحات لتلك الخصائص، وعنه أخذ من جاء بعده»^(٤).

(١) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ١٨.

(٢) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ٣١.

(٣) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ٦٠.

(٤) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ٦١.

٣-٣ الموازنة بين الشعراء والسرقات:

لا يعالج محمد مندور هتين القضيتين في ذاتهما، وإنما «بالنحو الذي عولجت به عند العرب»^(١)، أب أنه يتتبع هذه الآراء النقدية ويبحث فيها عن ملامح النقد المنهجي؛ فيخلص إلى أن الموازنة بين شاعر وشاعر هي عند الأمدي، دون غيره، موازنة منهجية لأنه «لم يقصرها على أبي تمام والبحري، بل أحاط بكل معنى عرض له عند الشعراء المختلفين [...] ولأنه لا يقف فيها عند مجرد المفاضلة بين الشعراء، بل يتعداها إلى إيضاح خصائص كل منهما وما انفرد به دون صاحبه أو دون غيره من الشعراء»^(٢).

أما السرقات، فهي لم تدرس دراسة منهجية إلا عندما ظهر أبو تمام، نظرا «لقيام خصومة عنيفة حول هذا الشاعر [...] ولأنه عندما قال أصحاب أبي تمام إن شاعرهم قد اخترع مذهبا جديدا وأصبح إماما فيه، لم يجد خصوم هذا المذهب سبيلا إلى رد ذلك الادعاء خيرا من يبحثوا للشاعر عن سرقاته»^(٣) كذلك هو الحال عندما ظهر المتنبي ونشأت حوله خصومة جديدة فبحث خصومه عن سرقاته.

٣-٤ تحول النقد إلى بلاغة:

لم يغفل مندور التطرق إلى قضية هامة يثيرها التأريخ للنقد العربي، وهي علاقة النقد بالبلاغة؛ فطغيان روح العلم عند أبي هلال العسكري جعلت النقد عنده يتحول إلى بلاغة، واصفا هذا التحول بـ «الكارثة»^(٤).

ويعيب محمد مندور عن العسكري منهجه التقريري الذي يعتمد على التقاسيم والتعاريف، وهذا ما جعله يصل بالبديع إلى خمسة وثلاثين وجها، حتى أخذ الأدباء

(١) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ٣٤٢.

(٢) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ٣٤٤.

(٣) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ٣٥٧.

(٤) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: ٣١٩.

والشعراء يستخدمون تلك الأوجه ليحلوا بها أسلوبهم، فتحول النقد من دراسة وتحليل العمل الأدبي إلى سته أساليب يتبعها الشعراء مما حول النقد إلى بلاغة.

خاتمة:

نجمال فيما يلي أهم النتائج التي توصلت إليها على النحو التالي:

- ١- تخطط النقد العربي المعاصر في إشكالية المنهج، بين من يعده مجرد أدوات إجرائية في يد الناقد، ومن ينظر إلى المنهج بعين القصور وينزع إلى التوفيق بين المناهج، ومن يرى بضرورة تأصيل منهج عربي في النقد.
- ٢- تحيز محمد مندور لمنهج جوستاف لانسون في تاريخه للنقد المنهجي، محاولاً استثمار إجراءات هذا المنهج في المصنفات النقدية لاستخلاص مكان النقد المنهجي عند العرب ليخلص إلى أن مؤلف الأمدي (الموازنة) هو المؤلف النقدي الوحيد، والوساطة بدرجة أقل، حيث نلمس نقداً منهجياً.
- ٣- يثير التاريخ للنقد المنهجي عند مندور مجموعة من القضايا التي لم يدرسها في ذاتيتها وإنما في علاقتها بنشأة النقد المنهجي.
- ٤- نسجل على مندور توظيفه نظرية التطور رغم تنبيهه على عدم توظيف العلوم الطبيعية في النقد، إذ إنه يقر ببداية نشوء نقد منهجي عند ابن سلام، ليرتقي هذا النقد مع الأمدي، ثم أخذ في الاندثار مع كتاب "الصناعتين" للعسكري.

رغم تعرضنا لمسألة التاريخ للنقد من زاوية محمد مندور وكتابه "النقد المنهجي عند العرب"، لا يمكننا أن نصدر حكماً عاماً بخصوص هذه المسألة في النقد العربي المعاصر عامة، ومن ثمة إسقاط النتائج المتوصل إليها في هذا البحث، لأن الاقتصار على ناقد واحد يضعف من موضوعية البحث، وننبه الباحثين على ضرورة الاطلاع على باقي المصنفات لتوسيع آفاق البحث والدراسة.

المصادر والمراجع

- أسئلة النقد، حوارات مع النقاد العرب، جهاد فاضل، الدار العربية للكتاب.
- إشكالية التحيز في النقد العربي المعاصر، علي صديقي، كنوز المعرفة، الأردن، ط ١، ٢٠١٦ م.
- التراث والحدائق، دراسات ومناقشات، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩١ م.
- تطور النظرية النقدية عند محمد مندور، فاروق العمراني، الدار العربية للكتاب، تونس، ط ١، ١٩٨٨ م.
- الثورة والأدب، لويس عوض، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧ م.
- خداع المرايا، عيد بلبع، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١ م.
- الرؤى المقنعة، نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، كمال أبو ديب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ م.
- سمات المنهج النقدي عند محمد مندور، عبد الرحمان أبو عوف، أدب ونقد، القاهرة، عدد ٦٣، ١٩٩٠ م.
- شعرنا القديم والنقد الجديد، وهب أحمد رومية، عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٠٧.
- عشرة أدباء يتحدثون، فؤاد دوار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٣، ١٩٩٦ م.
- في الشعر الجاهلي، طه حسين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ١، ١٩٢٦ م.
- في الميزان الجديد، محمد مندور، دار النهضة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٣ م.

قراءة التراث النقدي، جابر عصفور، منشورات عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط١، ١٩٩٤ م.

محمد مندور وتنظير النقد العربي، محمد برادة، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٧٩ م.

مذهبي في النقد، محمد مندور، المجلة، القاهرة، عدد ١٠٣، ١٩٦٥ م.

المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٣٢، ١٩٩٨ م.

المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٧٢، ٢٠٠١ م.

المنهج في مشروع محمد مفتاح النقدي، ظواهره وقضاياها، سعيد عبيد، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة غير منشور، جامعة محمد الأول، وجدة، ٢٠٠٣-٢٠٠٤ م.

نحو منهج بلاغي لنقد الشعر، عبد الغني حسني، الندوة الدولية: النص بين الدراسة والتدريس، المدرسة العليا للتربية والتكوين، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، فبراير ٢٠٢٢ م.

النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، مترجم عن الأستاذين لانسون وماييه، محمد مندور، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦ م.

نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، محمد الدغمومي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات رقم ٤٤، ط١، ١٩٩٩ م.